القصة في الأدب الانجليزي

طه محمود طه

١ ـ التربة والجذور

القصة رواية نثرية خيالية ، وكلمة « القصة » لاتستعمل بدقة في اللغة الانجليزية وهي انما تعبر عن أنواع كثيرة من الانتاج الادبي ، وكثيرا ما يتسع التعريف ليشمل قصصا منظومة وأنواعا جديدة من النثر الخيالي القصصي . وقد استعملت الكلمة بادىء ذي بدء بمعناها الشائع الآن في القرن الثامن عشر الميلادي وسرعان ما حلت محل كلمة «الرواية» أو ما يعرف بالرومانس

وجدير بالذكر أن الفرق بين الكلمتين لم يحدد تحديدا دقيقا ، فبينما نجد ان الرواية قد تطلق على اعمال ادبية قصصية ، شعرية كانت أم خيالية بالرغم من اختلاف الاسلوب النثري المستعمل وهو يتأرجح مابين الاسلوب الواقعي البسيط والاسلوب الشاعري المعقد . اما من ناحية الشكل أو الصورة فلم يتحدد بعد مفهوم القصة من ناحية طولها تحديدا دقيقا وايا ما كان الامر فانه يمكننا ان نرتب انواعها المختلفة ترتيبا تنازليا من حيث طولها على النحو التالي : أولا : القصة ، ثانيا القصة الموجزة .

وهي اقصر من القصه القصيره . ثالثا القصة القصيره وهي اقصر من القصة الموجزة واطول من الاقصوصه ولاتطل الشخوص تحليلا دقيقا وانما تعالج شخصية أو حادثة واحدة رابعا الاقصوصة وهي اقصر أنواع القصص ولاتحتمل التحليل الدقيق للشخوص او الحوادث وانما تعطي رسما «كروكيا» لشخصية او حادثة ما وتكتب باسلوب سهل ويطلق على هذا النوع احيانا او رسوم الشخوص .

وقد كان كتاب القصة الاوائل يعتبرون القصة سردا واقعيا للاحداث سواء أكانت هذه الاحداث حقيقية أو مختلقة ، ويطلقون الى الرواية على انها نتاج ارستقراطي يوحي بالهروب من

عند قدماء المصريين (الثورة الفنية في عهد اخناتون) كذلك فوقه للواقعية في عصرنا هذا .

وقبل غزو النورمانديون لانجلترا في عام ١٠٦٦ م بقيادة وليم الفاتح كان الانجليز والساكسون يجتمعون حول النار ليمضوا بالليل الطويل للاستماع لقصص المخاطرات لبيولف وكيولف. وكانت هذه القصص ملاحم شعرية يغنى بها الادباء وهي تشبه الى حد كبير المسلسلات الاذاعية الحديثة من حيث الاطناب والمبالغة لتسيطر على آذان السامعين اكثر من سيطرتها على اعينهم وكان كاتبها وهو مجهول يستعمل التكرار والسجع والجناس والكنايات والمبالغة في الوصف .

وللقصة قواعد يجب مراعاتها ، فلكي تكون « قصة » بمعنى الكلمة يجب أن تكتب لتقرأ في صمت ، وفي هذا الصمت يتم التقاء الكاتب والقارىء ويتم عالقصة، على عكس المسرحية ، لاتتطلب مشاهدين او نظارة ولكنها تتطلب قراء واعين لتقاليدهم ومدركين لما يدور من حولهم من تغيرات اجتماعية أوثقافية. ويرجع تأخر ظهور القصة الى انه لم يكن في انجلترا مثل هذا المجتمع الواعي في العصر الوسطى . والسبب الآخر هو سيطرة المسرح والشعر وشيوعهما وحب الجمهور لهما في العصر الاليزابيثي. ولم تظهر القصة كما نعرفها في الادب الانجليزي الا بعد أن أخذت المسرحية في الذبول وفقدت المقام الاول الذي كانت تحتله في الادب الانجليزي وليس لدينا في الادب الانجليزي الى ما قبل نهاية القرن السادس عشر ما يمكن أن نطلق عليه «النثر القصصي» أو«القصة» بتعريفها الحالي ولكن جمهورا غفيرا من قراء القصة كان قد بدأ فعلا في الظهور ونتج ذلك صحوة ذهنية وأدى هذا الى ظهور الكاتب القصصي والقصة ليعبرا عما يشعر به هذا الجمهور . وظهر مثل هذا النوع من الجمهور قبل ذلك بقرون في أثينا وروما حين كان الشعب يستمع بشغف لحكايات الحب والمغامرات . وكل أنواع النثر القصصي التي نجدها في الادب الانجليزي والادب الغربي ـ الرواية الرعوية او الريفية (الباستورال رومانس) وادب الشطار والصعاليك (البيكاريسك) والقصة العلمية والخيالية ـ لها جذورها في الآداب الاخرى في اعمال اخيلس تاتيوس وهيليودورس ولونجس . وقد بقيت بعض قصص هؤلاء الادباء وكان من الممكن ان يكون العدد اكبر من هذا ولكن بعضها فقد . وبطريقة غريبة معقدة شقت هذه القصص طريقها الى شمال اوروبا بواسطة التجار والقساوسة والفرسان ايام الحروب الصليبية . وكان ابسط هذه الانواع هو الذي يدور حول فشل حب البطلة والبطل لمولدهما تحت نجمين مختلفين. وقد وصل هذا النوع الى انجلترا ونما وترعرع خاصة بعد دراسة كتب ارسطو في المسرحية وقواعد كتابتها وتفرع الى سلسلة من المغامرات والمواقف والحوادث المصطنعة التي تحل عقدتها عن طريق التعرف على الاشخاص بواسطة الشامات والعلامات الجسدية المميزة . ويمكن القول بأن جذور القصة الانجليزية يحتمل العثور عليها بين حطام الحضارة القديمة في اليونان وايطاليا وبيزنطة

حيث ظهرت قصة الكاس المقدس وما دار حولها من حكايات عن الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة . وهكذا نرى فى ادب العصر الاليزابثى وفى القصص الشعبى شخصيات وافكار وحوادث من العصر البرنطى . ولم يفقد الناس اهتمامهم بالسحر والشعوذة والمغامرات والفروسية حتى بعد انتهاء تلك العصور بل ظلت تلك الافكار تحظى بمكانة عالية فى النثر القصصى .

وقد ساعد الغزو النورماندى لانجلترا على انتشار التراث الكلاسيكى ، كما ساعد احتكاك الصليبيين بالشرق على تعدية الخيال الانجليزى كما نراه فى قصة فلورس وبلانشفلير التى تقدم لنا لونا شرقيا . وقد تحسست حالة الشعب اثناء الاستقرار النفسى الذى تلا الغزو النورماندى وعاش كثير من الكتاب الفرنسيين طوال قرنين من الزمان فى بلاط ملوك انجلترا وكان معظمهم من المؤرخين الذين احبوا الاهتمام مرة اخرى بتاريخ حرب طروادة كما انكب الرهبان فى صومعاتهم على نسخ روائع الادب الاغريقى والرومانى . وكان من اشهر هؤلاء الكتاب بنوا دى سانت مور الذى عاش فى بلاط هنرى الثالث وترجم درايس (ويقول عنه هومر انه كان قسيسا عاش اثناء تدمير طروادة) الى رواية شعرية من ٣٠٠٠٠ بيت .

وفى ترجمته أضاف حوالى كثيرة الى القصة الاصلية فى النص اللاتينى القصير وانقلب ابطال طروادة الى فرسان عصور وسطى واصبحت البطلات سيدات بلاط . ويحكى بنوا ، وربما لاول مرة ، قصة تروبلس وكريسيدة التى اوحت لشوسر بنفس الموضوع .

والرواية فى العصور الوسطى فى انجلترا تعتمد على اصل لاتينى او او فرنسى . وقد ازدهر هذا النوع من الادب فى انجلترا فيما بين عام ١٢٠٠ ، ١٠٠ م واصبح يكون جزءا هاما فى الانجليزى . ومن أهم خصائص الرواية عدم مطابقتها للواقع سواء فى رسم الشخوص او فى سرد الحوادث ولهذا لا تخرج عن كونها اولا ، مبالغة فى وصف رذائل الطبيعة البشرية اومحاولة لوصف الفضائل بصورة مثالية ، ثانيا ، ميل شديد لوصف كل ما هو غريب وبعيد ورائع ومستحيل . ثالثا ، اهمية الحاني الشديد فى حب سيدة جميلة وعبادتها بطريقة عاطفية مبالغ فيها ، ومصدر هذه الفكرة هو تقديس العذراء مريم . رابعا ، وجود هدف يسعى اليه البطل كالعثور على الكاس المقدس مثلا . خامسا ، وجود عنصر ديني هام او الاغراق فى الخيال وخوارق الطبيعة او كليهما . سادسا ، تحليل الشخصيات بطريقة مثالية نموذجية رمزية . سابعا ، التحلل الى حد ما من قيود تسلسل الحوادث تسلسلا عضويا منطقيا .

القرن الرابع عشر :

وفى القرن الرابع عشر اكتفى الشعب بالروايات المنظومة مثل روبن هود وماريان ومغامرات بيفيز اوف هامتون وكانت تصور معارك المعالقة وورع العصور

الوسطى التى كانت عصورا يسهل فيها الخلط بين ما هو طبيعى حقيقى وماهو اسطورى خارق للطبيعة ، وبين العلم والسحر . وكان المنشدون يطوفون البلاد من مكان لآخر يروون هذه الاساطير الشعرية التى لا نهاية لها ، ولكنها كانت قصصا ، كما يقول سير فيليب سيدنى ، « تسبى الاطفال لعهم وتلهى الكبار عن مدفئتهم » .

وبمرور الزمن فتر حماس الناس لهذه الاساطير التى تتصارع فيها العمالقة وتظهر فيها الوحوش المطشى الى الدماء واصبحت هذه القصص تروى للاطفال واخذ المنشدون يتلون بعض قصص الحب بين الفرسان . وحتى بعد ظهور الطباعة فى عام ١٤٤٠ م لم يكن المتعلمون الذين يستطيعون القراءة سوى طبقة المهنيين والطبقة الراقية من سيدات ورجال . ولكن عامة الشعب ، بالرغم من جهلهم بالقراءة والكتابة ، كان لديهم قدر كبير من المعلومات . ففى القرى كان الناس يعرفون سيرة القديسين وقصص الاغريق والرومان ولديهم قدر كبير من المعلومات عن الميثولوجيا الاغريقية ، ومن كان منهم يعرف اسم الاسكندر لم يعه حتى معرفة اسم حصانه .

ولكن بالرغم من كل هذه القصص وسرد الاساطير والحكايات لم يظهر أى شىء يمكننا أن نطلق عليه كلمة « قصة » او النثر القصصى ، ورغما لو كتب شوسر رواية تروبلس وكريسدة نثرا للقصاء او القصة الحديثة بدلا من ريتشاردسون مثلا ، لان تشوسر فى هذه الرواية المنظومة يسرد لنا قصة بأسلوب طبيعى طبيعى ويرقه ومرح وتحليل نفسى قل أن يوجد مثله فى عصره ذلك فتحليله لشخصية كريسيده وتفهمه لها وما تعرضت له من اغراء فى المعسكر الاغريقى ورغبتها الصادقة وفشلها فى أن تكون مخلصة لحبيبها الغائب تظهر لنا عقريه لا نجدها فى الادب الانجليزى قبل أن يطلع علينا ريتشاردسون بملتله كلاريسا . ولكن النثر ، الذى يعتبر الوسيلة الوحيدة فى كتابة القصة ، تطور ببطء شديد ولم يحقق الامل الكامن فى رائعة تشوسر القصة الا بعد مضى ثلاثة قرون .

وتعتبر سنة ١٣٧٧ تاريخا مشهودا فى تطور النثر القصصى فى انجلترا بظهور رحلات سير جون ماندفيل وهى مترجمة من الفرنسية . وقد اعجب الشعب فى بادىء الامر بهذه الرواية لمغامرات هذا الفارس الانجليزى ورحلاته الى فلسطين والصين واعتبرها سردا واقعيا حقيقيا ولو ان فيها شيئا من الغرابة لفارس عربى بين شعوب شرقية وما كان على الشعب الا أن يتقبلها فقد كان يؤمن كما قلنا ، بكل شىء دون تمييز أو تدقيق وكانت الرواية كلها مخلصة ولا تمت للحقيقة بصلة على خلاف ما سنعلمه ديفو بعد ذلك بثلاثة قرون .

القرن الخامس عشر :

وفى القرن الخامس عشر ساعد ظهور الطباعة على انتشار تذوق النثر القصصى وسهولة تداوله . ومن الغريب شخص مثل كاكستون أسس النثر الانجليزى البسيط ويصفى على اللغة سهولة ووضوحا فى التعبير وبهذا يعطى

للقصة اهم عامل من عوامل انتشارها الا وهو جمهور القراء . وقد اعجب كاكستون ، بعد ان عاش لسنوات عدة في فرنسا ، بالاسلوب الفرنسي وسهولته وجماله وحاول ان ينقل هذه الخصائص الى الانجليزية بترجمة عودة تاريخ طروادة عام ١٤٧٤ وكان اختياره للموضوع مهما . ولما كان من رجال الاعمال فقد كان من الطبيعي ان يفضل النثر على الشعر في ترجمته فوق هذا كان يشعر ويحس بما يشعر ويحس به عامة الشعب . وكانت مادة حروب طروادة في أذهان الناس وتعتبر موضوعا محببا الى نفوسهم مما دعاه الى طبع رواياته على مطبعته في وستمنستر وهكذا ظل ادب العصور الوسطى حيا في أذهان جمهور القراء فيما بعد من الاجيال الجديدة . وبمرور الزمن ظهرت طبعات مختصرة وملخصة لهذه الروايات ووجدت طريقها الى زكيبة البائع المتجول ونقلت الى القرى والمدن في انجلترا في ذلك العصر .

وكان حب الجمهور للروايات هو الذي دعا كاكستون الى نشر ترجمة سير توماس مالوري لقصة موت الملك آثر واصبح هذا العمل النثري كنزا ضخما جمعت مادته من مصادر مختلفة لقدر عظيم من ادب الفروسية الرومانتيكي . وعاش سير توماس في هذه الفترة العصيبة وجمع رواية موت الملك آثر في السجن بين عامي ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ والقصة تلخص لنا وجهة نظر مالوري الى الماضي بحسرة وحزن سنجدهما فيما بعد في قصص سير والتر سكوت . وكان للجو الرومانتيكي الذي خلقه مالوري في هذه الرواية اكبر الاثر فيمن اتوا من بعده من كتاب القصة . وقد قام كاكستون بطبع هذه الرواية واصبح من السهل سرد القصة نثرا وتمكن النثر بواقعيته وسهولته من التغلب على محسنات الشعر وكان لهذا الصراع بين الشعر والنثر أثره في تطور القصة في الادب الانجليزي .

ولم يكن للقصة ان تظهر الى حيز الوجود الا بعد ان تدرك الحاجة الماسة الى اسلوب نثري طبيعي . فالرواية المطومة مخلوق مريع والوزن شيء مفتعل يوحي بالثرثرة مفصلة للعاطفة ويعتبر الى جانب ذلك نوع من التقييد تفرضه علينا طبيعة حياتنا اليومية . كما ان لغة الخيال تختلف اختلافا كبيرا عن لغة الحياة والواقع واللغة الشاعرية هي نتاج لحظات عابرة قصيرة في حياة الانسان وليست غذاءه اليومي التي تعنى به القصة عناية فائقة .

وكان من اثر هذا التاخر في تطور القصة عدم وجود فن واع لرواية القصة واصبحت الجودة محض صدفة وليست نتيجة لتخطيط منظم او دراسة واعية . فارسطو لم يضع قواعد لكتابة القصة وانما وضع قواعد للماساة وكذلك لم يشر الى اثرها الفني وعلى احسن الفروض كانت القصيرة تعتبر ملحمة ثرية (فيلدنج) واذا كان هذا يعتبر من الناحية الفنية تاخرا في ظهورها ، فقد كان ميزة لكتاب القصة، لان الكاتب القصصي اصبح في حل من قيود القدامى بعكس كتاب المسرحية .

وهكذا تمكنت القصة، وقد اصبحت حرة من قيود المسرحية ، من ان

تتشكل وتتطور فى عصورها المختلفة وتعكس احتياجات العصر الذى تكتب فيه من ناحية الشكل ومن ناحية المضمون . وعن طريق التجارب ، واحيانا عن طريق الصدفة ، اهتدت القصة الى اكثر اداة للتعبير واصبحت لها حساسية فائقة لاستقبال التقلبات المختلفة سواء كانت اجتماعية او سياسية او علمية .

ومن اهم الاسباب التى ادت الى تطور النثر القصصى فى العصر الاليزابثى التراجم التى نشرت للروايات الكلاسيكية التى اكتشفت فى عصر النهضة لانه ، كما اوردنا ، لولا هذه التجارب فى الادب الكلاسيكى لما امكن للقصة ان تظهر بشكلها الحالى فى الادب الانجليزى . فلولا هذا التراث لبقيت عقلية العصور الوسطى بخرافاتها وعدم حرصها على التعبير منسلطة على القصة كما فى دون كيشوت . وحتى لو فرضنا ان الادب الكلاسيكى يزخر بالمغامرات والحكايات الخالية البعيدة الاحتمال فعلى اقل تقدير كان ابطال رواياته من دم ولحم حتى ولو كانوا آلهة .

ولم تخل سنة ١٥٩٧ م الا وكان معظم التراث الكلاسيكى مترجما الى الانجليزية واصبحت هذه التراجم فيما بعد شائع شيوع المؤلفات الانجليزية نفسها وبعضها كان له اثر قوى مماثل لاثر روائع العصر نفسه . واشهر ما ترجم فى العصر الاليزابثى كان التاريخ الاثيوبى لهليودورس ، كلوتوفون وليوكيب وهى من نوع البيكاريسك لاخيليس تاتيوس وكتب فى القرن الثالث الميلادى وهما روايتان اغريقيتان . ومن اشهر الروائيين القصصى لونجس مؤلف الرواية الرعوية

دافنيس وكلو وقد عرفها الشعب عن طريق ترجمه عربيه لامو

وفيها وصف لأركيديا

تلك الارض الخيالية للعشاق من الرعاة ، تجرى فيها الجداول وينبت فيها الزرع فى وديان خصبة ، ولايبلغ الانسان فيها الشيخوخة والغرض الاساسى فى الحياة فى هذا الفردوس الارضى هو التمتع بالطبيعة والحب والجمال .

وهكذا ترجع بنا جذور النثر القصصى الى ثلاثة فروع : قصص هليودورس بنت قصص المغامرات والمخاطرات والتى نراها على احسن وجه فيما بعد فى قصص فيلدنج وسير ولترسكوت ومن اكيليس تاتيوس وبترونيس بنت قصص المختالين (البكاريسك) ونراها فى قصص ومن لونجس بنت قصص الحب الرومانتيكى وعددها فى عصرنا لايحصى .

واسلوب هيليودورس اسلوب محل اسلوب الكاتب الواثق من نفسه وتظهر حبكته الدقيقة فى حبكة رواياته التى وان كانت معقدة احيانا ، الا انها ليست مربكة . اما لونجس فقد استعاض عن سرعة الحركة الخارجية فى رواياته بالاهتمام بالتحليل النفسى والقلب الانسانى وفى روايته دافنيس وكلو يحكى قصة طفلين وجدهما راع فى

ظروف عامضة ، وتناهما حتى كبر وتحدا وتنتهي الرواية ككل الروايات الغرامية بالزواج ولكن بعد ان تمرف شخصية البطل والبطلة . واسلوب لونجس يتميز بالسهولة حتى ليعد اسلوبا غير فني ولكن حتم عليه ذلك بساطة الفكرة وطبيعة القصة نفسها وبساطة الحياة والعادات الريفية . واعظم خدمة اسداها لونجس للقصة تكمن في مقدرته على اظهار الطبيعة البشرية لا في شخوص عظيمة في صراعها مع الاقدار في ملحمة شعرية ولكن في بساطة النبل الفطري كما يتمثل في راع وراعية . ويظهر اثره في العصر الاليزابثي في اعمال توماس لودج مثل روزاليند وهي رواية رعوية بنى عليها شكسبير مسرحية (كما يحلو لك) .

ويعتبر ريتشاردسون في القرن الثامن عشر وروسو في القرن العشرين من اتباع لونجس حيث يصبحان بالحركة الخارجية في سبيل ابراز الطبيعة البشرية والتحليل النفسي للشخوص.

وبالاضافة الى الجذور السابقة التي استمدت منها القصة غذاءها نرى انها امتصت كذلك عصارة الادب الابطالي والفرنسي والاسباني ـ تلك الروائع التي اعطتها نضارة وجعلتها اصلب عودا واقدر على النمو والتكيف ، فالشر القصصي الاليزابثي يحمل دائما طابع الاقتباس من الآداب الاخرى . ونظرة واحدة الى مسرحيات شكسبير كافية لان تعطينا هذه الفكرة

وقد شاهد القرن السادس عشر في انجلترا ثورة في فن العمار وزينت القصور بما نهب من الاديرة وتدفق الذهب والفضة الى خزائن الدولة وبدأت عظمة عصر النهضة في الظهور واخذت تمرا يتفتح العصور الوسطى وتواها. ولكن هذه القصور والضيعات ظهرت الى حيز الوجود على حساب الطبقة الفقيرة واصبحت مصائب قوم عند قوم فوائد ـ وانتشرت البطالة والبؤس والفقر كما يظهر من كثرة التشريعات والقوانين . ومات كثير من افراد الشعب تحت اسوار هذه القصور من شدة الجوع والذي جرأ منهم على تحدي السلطات الحاكمة وبطشها أوقع في الجريمة وتعرض لعقاب صارم بعدها. وشهدت الشوارع التي كانت تطوف بها المواكب الملكية وعربات الارستقراطيين اشنع انواع الفقر والمرض ولحقت هذه الحالة بعض النبلاء الذين اضطروا الى بيع ممتلكاتهم والنزوح الى المدينة الغوغى حتى في لندن نفسها . وربما تعطي روايات ذلك العصر فكرة خاطئة عن حالة المجتمع ، فهي استطاعت ان تعطي للحياة جوا شاعريا جميلا ولكن المقالات والنشرات في ذلك فاتحة عن آمال الطبقة الفقيرة الضائعة وربما نستطيع من هنا ان نعلل سبب الانسجام او التعاطف بين الادب الانجليزي والادب الاسباني في ذلك الوقت اذا قارنا حالة اسبانيا الاقتصادية بحالة انجلترا فقد اجهدت الحرب اسبانيا (ثورة الهولنديين وهزيمة الارمادى سنة ١٥٨٨) وانتشر فيها الفساد واصبح الغلاء فيها فقراء والفقراء تحولوا الى محتالين واقاقين ومتشردين .

والكتاب الذي يصور حالة اسبانيا

فى ذلك الوقت تصويرا واقعيا هو لص بورميز

وهو لمؤلف مجهول نشر عام ١٥٥٤ وظهرت له ترجمة انجليزية فى عام ١٥٧٦ .

وقد اعطى هذا الكتاب للادب الانجليزى نوعا جديدا من القصة فى موضوعها واسمها الا وهو البيكاريسك والكتاب ترجمة ذاتية لحياة محتال وكان ابنا غير شرعى لصاحب طاحون من محظيته عاش على ضفاف نهر تورميز بالقرب من سالامانكو . وبدأ البطل حياة النصب والخداع بالعمل كدليل لرجل اعمى وكان يسرق طعامه وماله . وبعد أن عمل مع عدد من الفقراء والاقاقيين اصبح مناديا لسلعة توليدو بعد ان تزوج من عشيقة قسيس الكنيسة .

يصف وصفا ساخرا بعض الانماط او الطرز الاسبانية . وفى عالم يتغير هكذا لم يكن هناك سوى فلسفة واحدة للمحتال تتلخص فيما يلى : « ليس هناك امرا من هذه الحالة والطريقة الوحيدة للتخفيف من شرور الحياة وقسوتها هو ان يضحك الانسان على سخفها » .

وقد هيأت له حياته العملية ان يصف وصفا ساخرا بعض الانماط او الطرز الاسبانية . وفى عالم يتغير هكذا لم يكن هناك سوى فلسفة واحدة للمحتال تتلخص فيما يلى : « ليس هناك امرا من هذه الحالة والطريقة الوحيدة للتخفيف من شرور الحياة وقسوتها هو ان يضحك الانسان على سخفها » .

وقد اوحى هذا الخليط الاساسى والخيال والمثالية لتوماس ناش بكتابه العجيب من السخرية والفكاهة والعطف « حياة جاك ويلتون » فى عام ١٥٩٤ حكاية بيكاريسك تحكى قصة جندى خدم فى جيش الملك هنرى الثامن يعيش من خصور بداهته ومن مقدرته على النصب والاحتيال على حرر بخيل وآخرين من سكان منزله ويجلد فى النهاية . ويسافر جاك الى الفلاندرز والمانيا وايطاليا ويستمتع بمغامرات كثيرة اهمها مشاهدته لاراموس وهو يكتب « فى مدح الحماقة » والى مارتن لوثر وهو يهاجم البابا .

ولم تكن معظم النثر الروائى الاليزابثى بهذه الكيفية بل كان هناك نوع آخر يعالج المشاكل الاجتماعية ويوحى الينا بما ستكون عليه القصة الواقعية فيما بعد . فنجد توماس ديلونى يحبب القرى والمدن بنشد رواياته المنظومة ليعبر فيها عن آلام مواطنيه ويصف عالم العامل من الطبقات الوسطى . واحسن هذه الحكايات هى ١٥٩٧ (جاك أوف نيوبرى) وهى تحكى قصة صبى فى مصنع نسيج يرقى حتى يتزوج أرملة صاحب المصنع التى لاتناسبه فى السن أو المكانة ولكنه يصبح تاجر اقمشة شهير يضم مصنعه خمسمائة عامل عقير « وكلهم يعملون لصالح الكومونولث » وتموت زوجته ويختار زوجه خادمه كانت تعمل فى منزله ويتنازل بطريقة عاطفية عن المهر الذى يجب ان تقدمه اليه . وتستمر القصة لتحكى قصة